صـــوت الـــدم (١)

نوال السباعي

أقف أمام الصفحة ناصعة البياض ، كما أمام الشاشة الإلكترونية وكلاهما تنتظران أن أترك فيهما شهادتي على الأيام الأربعين العصيبة التي عاشتها مدريد منذ الحادي عشر من آذار/مارس الماضي ، وعاشتها مع مدريد وفي مدريد الجاليات العربية والمسلمة المقيمة فيها .

أنظر إلى الصفحات البيض أمامي ولا أرى إلا الدم ، كل شيء في حياتنا أصبح ملوثا بالدم والقهر والحزن والألم والخوف ، اختلط الحابل بالنابل ، الجهاد بالقتل العشوائي ، والاستشهاد بالإرهاب ، والإسلام اختلط اسمه بشهوة سفك الدماء ، اختلط اسم سيد الشهداء في عصرنا الشيخ أحمد ياسين باسم الجريمة المنظمة ، وجراح القدس المقدسة النازفة اختلطت في الأذهان بتهمة الاعتداء على المدنيين الأبرياء .

أيد وأرجل مبعثرة مبتورة ، لحم آدمي مشوي في كل مكان ، أجساد متفجرة قد تناثرت أشلاؤها ، ودماغ الشيخ مندلقة ، تحرر ذلك الجسد ، وأبى الدماغ إلا أن يتحرر من أسر الجمجمة الطاهرة .. وقضى الرنتيسي .. قتل الرنتيسي بعد شيخه فكانت ضربة على رؤوسنا شبه قاصمة ، حتى أن أحدنا كان في مدريد يُعجزه الانتصاب واقفاً لثقل الهم والألم في وجدانه .. وترى الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية ، نظرات زائغة وعيون دامعة وأفئدة فارغة .

اجتمعت علينا في مدريد جراح صعبة مستعصية ، أولها معاناة الألم الإنساني الذي نزل بأهل مدريد ، جراحهم كانت تنـــزف في أجسادنا ، دموعهم كانت تنسكب كذلك في روعنا ، هرولتهم للملمة القهر كانت ألماً في نفوسنا ، تلك القاطرات كانت قد تفجرت ذلك الصباح في قلب كل إنسان يعيش في مدريد ،

في قلب العمال الذاهبين إلى أعمالهم ، فقراء يسافرون مع الفجر طلباً للرزق ، هاجروا من أقطار الأرض ساعين على ولد وأهل يسدون جوعتهم ، فوجدوا الموت الظالم في تلك القطارات الصباحية التي كانت مكتظة بالدفء الإنساني ، وأنفاس المهرولين مع النعاس يغمسون اللقمة بالعرق ، وهم لا يدرون أن أقدارهم أبت إلا أن تغرقهم في دوامة من الدم فاغرة فاها تبتلع مدينة ودولة وحكومة، وستبتلع -كما ظهر فيم بعد - سياسات عالمية وخططاً دولية وترتيبات لحروب شاملة وقائية وغير وقائية ، اقتصادية تتهافت على البترول أم غير أخلاقية تستغل الجغرافيا والزمن لدعم " الربيبة " الدائبة تقتيلاً وتذبيحاً في أهل الرباط والصبر .

لكن هذه التفجيرات ابتلعت من حيث أراد منفذوها أم لم يريدوا ديناً وجالية وحواراً وتعايشاً وآمالاً وجهوداً طويلة مضنية للدفاع المستميت عن الإسلام وشرحه للناس وتقريبه إلى أفهامهم على مر نصف قرن من الوجود العربي الإسلامي في إسبانية .. هكذا بدا المشهد بُعيد الحادي عشر من آذار/مارس ، وهذه هي الأفكار السوداء التي كانت تسيطر على الجميع ، وقريباً في الزمان والمكان والأذهان ماثلة كانت قصص الهول البوسنية الفظيعة وصور الهجرة الكوسوفية المليونية المريعة! .

وكأنه لم يكف أهل مدريد من العرب والمسلمين ما حلّ بهم ، فلم نكد نستفق من هول ما نزل بالمدينة المكلومة صبيحة الحادي عشر من آذار/مارس ، وقبل مُضي أربع وعشرين ساعة على تلك التفجيرات ، حتى زُلزل المسلمون في مدريد زلزالاً شديداً وهم يسمعون نبأ قدوم ذلك التنين المرعب ، تندلق النار من أحشائه لتحرق الأخضر واليابس .. " إن الفعَلة هم من العرب المسلمين " !! .

شريط قرآن في شاحنة ، ثم فيديو يُصرّ ويؤكد على أن المنفذين هم من أبناء جلدتنا ، ولم يجد هؤلاء القوم إلا سلة قمامة لصيقة بمسجد مدريد الرئيسي ليتركوا فيها بصمتهم على ذلك التفجير الجبان .

أنا وهو وهي ، كل مسلم في مدريد صغارنا وكبارنا ، عقلاؤنا ومجانيننا ، الملتزم منا بدينه والذي لم يقصد مسجداً للصلاة فيه قط! .. كلنا متهم بالقتل والإرهاب ، كلنا ينتمي إلى هذا الدين الذي طالما كره القوم وجود أتباعه بين

ظهرانيهم جهلاً به تارة وحقداً وحماقة تارات وتارات ، الدين الذي يُضطهد هنا بالألسنة اللاذعة والعيون الهامزة اللامزة وأجهزة الإعلام الظالمة المجحفة .

نحن لا نعيش الحادي عشر من سبتمبر! ، إنه الحادي عشر من آذار ، وهذه ليست نيويورك وواشنطن ، هنا مدريد! ، ومدريد لم ترسل " أباتشياتها " لاغتيال رموز المقاومة وقياداتها في فلسطيننا ، ولم تدخل بقواتها بلادنا لتستقر في صحارينا وبيادينا ، هنا مدريد ، ومدريد كانت قد خرجت عن بكرة أبيها منددة بحرب العراق! فلماذا وبالدم يحاولون كتابة التاريخ الأسود لأمة عاجزة اليوم عن الحوار وتبليغ رسالتها إلى الآخرين بغير أن تركب موجة الدم هذه التي تكاد تغرق في لجتها المجنونة الجميع ؟! لماذا يغتالون هذه الجالية التي تعيش على هامش الأحداث ، لا تنظيم ولا قوى سياسية ولا قيادات فكرية أو ثقافية أو دينية تستطيع أن تحركها ، ولولا الانتفاضة الفلسطينية ما رأينا قط حركة إيجابية لهذه الجالية على هامش وجودها في مدريد ؟! لماذا بدم المساكين يريدون تغيير حكومة " أثنار " الذي خان شعبه وخان الاتحاد الأوروبي الذي آوى إسبانية ونصرها ؟ ولماذا بدم المساكين في مدريد يريدون قهر الولايات المتحدة المستكبرة في الأرض ؟! .

" جمانة نمور " تسألني في قناة الجزيرة ؟ هل غيرت هذه التفجيرات من النتائج المتوقعة للانتخابات الإسبانية ؟! ، أتحدى الواقع وأتحدى الدم وأتحدى كل علوم السياسة والإحصاء ، أصرّ على عدم الاعتراف بهذه الفاجعة! .. برنامج واحد في أية قناة تلفزيونية إسبانية عشية الانتخابات كان كفيلا بتغيير نتائج الانتخابات ، تذكير الناس بالصحفي الإسباني الذي اغتالته يدّ الغدر الأمريكية كان قادراً على تغيير رأي الناس في حكومة " أثنار " المُحبة لتأجيج نيران البغضاء بين الشعوب ، مقال واحد في صحيفة كان بإمكانه عمل الكثير ، رسائل إلكترونية أو حتى هاتفية كانت كفيلة بكسب أصوات الناس لصالح تغيير الحكومة ، فلماذا لا نريد أن نبذل أي جهد لتعلم أي لغة من لغات العصر غير لغة الدم ؟! ، نعم .. **إن لغة الدم يمكن أن تُفهم من قبل الجميع ، وصوت الدم هو الصوت الوحيد الذي يسمعه الجميع رغم أنوفهم طوعاً وكرهاً! ، ولكن الجميع لا يمكنهم قط أن ينسوا ذلك الصوت القبيح ذو اللون الأحمر الذي**

يفحّ في وجود المجتمعات فيحفر في وجدانها أخاديد لا يمكن أن تمحى ولا أن تنسى قط! .. كما لا يمكن لصوت الدم في غير ساحات الشرف أن يكون محترماً أو يفرض قناعة أو يغير تفكيراً أو يدخل الأمم في دين الرحمة الإلهية! .

لم تكد الجالية المسلمة تلتقط أنفاسها للمرة الثانية لتدرك طبيعة ما حدث ، حتى هزتها حقيقة أخرى أشد هولاً من التفجيرات نفسها ، إذ لم يكن منفذو تلك الاعتداءات من أبناء العرب المسلمين فحسب بل كانوا من شباب الجالية من الذين كانوا يقيمون قانونياً بين ظهرانيها يأكلون ويشربون ويُصلون في مساجدها ، يدرسون في جامعات إسبانية بمنح دراسية إسبانية يدفعها الشعب الإسباني من جيبه! كيف يمكن للمرء أن يفهم هذه المعادلة ؟ كيف يمكن للإسبان أن يفهموا هذه الصيغ الإنسانية المتوحشة ؟ كيف يمكن أن ينظر المجتمع الإسباني بعد اليوم للإسلام وللمسلمين المقيمين فيه ؟ هل هم خونة ؟ هل هم مارقون ؟ هل هم لصوص مروا ذات يوم بمُدنهم فعاشوا فيها وبين أهلها وتمتعوا بطعم أمن وحرية من نوع خاص بين ظهرانيها ، ثم هُم وبجرة قلم خانوا الأمانة ودون أن يترددوا لحظة ، ودون أن ينظروا في عيون ضحاياهم تركوا تلك الحقائب المتفجرة ونزلوا من تلك القطارات ثم ذهبوا إلى مخابئهم لا يلوون على شيء ، اللهم إلا الإعداد لتفجيرات تالية إذا لم تنـــزل الحكومة الإسبانية الجديدة عند أوامرهم في سحب القوات الإسبانية من العراق ؟!! وهل يظن هؤلاء الحمقى أن سحب القوات الإسبانية من العراق كان انصياعاً لهم ؟ ، واستجابة لرعونتهم السياسية وفهمهم الملتوي لنصوص الإسلام وطبيعة العصر وواقع المسلمين فيه ؟! .

وهل يمكن لعاقل أن يفكر بأن هذه المجموعة من الشباب هي وحدها التي تقف وراء كل هذا الحجم من التخطيط الدولي المذهل لكبح سياسات الولايات المتحدة في الاستبداد بالأرض والثروات ؟ من يقف وراء هذه التفجيرات وهذه الاعتداءات ؟ وكيف يمكن استدراج شبابنا بمثل هذه السهولة إلى مواقف يندى لها جبين الإنسانية ليكونوا أدوات سهلة رخيصة بيد أعداء الإنسانية وأعداء الأمة وأعداء الدين ؟

– للبحث صلة –